## الفصل الثاني

# أثر التقديم والتأخير في الإخلال بفصاحة الكلام

إذا كانت البلاغة مبنية على ترتيب الألفاظ وحسن مواقعها ، فكلما كان الأسلوب محكم البناء جيد السبك والرصف ، قد أخذت فيه كل كلمة موقعها ، ولم تكن مكرهة عليه مستقبحة فيه ، كلما جاد اللفظ ، وأبان المعنى ، والعكس صحيح ، إذا لم يراع حسن الترتيب اللفظي ضاع الترتيب الذهني بسبب ذلك التعقيد اللفظي الذي حاول فيه منشؤه أن يثبت مهارة لغوية على حساب العمل الأدبي ، الشاعر لايقدم ويؤخر خضوعاً لمقتضيات الوزن فحسب ، وإلا كان مجرد ناظم ، لا حياة في شعره ، و لا قيمة لفنه ، ولكنه يعبر عن إدراك معين للأمور ، ويصور ما بنفسه من رغبات ، ولا بأس بعد ذلك أن تلتئم هذه الغاية المعنوية مع أي قيمة شكلية أخرى كسلامة الوزن أو مراعاة الموسيقى الداخلية ، أو غير ذلك ، مما يدلنا على أن التقديم والتأخير في الشعر مثلهما في النثر يتمان بإدراك ووعي : ويهدفان إلى قوة المعنى وصدق التعبير وجمال العبارة ولا يخلو التقديم والتأخير من أحوال أربعة :

● **الأول** : ما يفيد زيادة في المعنى مع تحسين في اللفظ ، وذلك هو الغاية القصوى ، وإليه المرجع في فنون البلاغة ، والكتاب الكريم هو العمدة في هذا ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢) .

تجد أن تقديم الجار في هذا قد أفاد التخصيص ، وأن النظر لا يكون إلا لله مع جودة الصياغة وتناسق السجع .

● **الثاني** : ما يفيد زيادة في المعنى فقط نحو ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الزمر:٦٦) فتقديم المفعول في هذا لتخصيصه بالعبادة ، وأنه ينبغي ألا تكون لغيره ، ولو أخر ما أفاد الكلام ذلك .

● **الثالث** : ما يتكافأ فيه التقديم والتأخير ، وليس هذا الضرب شيء من الملاحة كقوله :

**وكانتْ يدي ملأى به ثُم أصبَحْت  بحمد إلهي وهي منهُ سليبُ**

فتقديره : ثم أصبحت ، وهي منه سليب بحمد إلهي.

● **الرابع** : ما يختل به المعنى ، ويضطرب ، وذلك هو التعقيد اللفظي ـ أو المعاظلة ـ كتقديم الصفة على الموصوف والصلة على الموصول أو نحو ذلك. (١)

مثال ذلك قول الفرزدق الذي ذكره الجرجاني كمثال للتعسف الممقوت :

**وما مثلُهُ في الناس إلا مملكاً  أبو أمه حيٌّ أبوُه يقاربُه**(٢)

فترتيب الألفاظ في هذا البيت :

**وما مثله في الناس حي يقاربه  إلا مُمَلكاً أبو أمه أبوه**

والمقصود بقوله «أبو أمه أبوه» خاله يقول الجرجاني تعقيباً على هذا البيت : «وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم ، وعابوه من جهة سوء التأليف ، أن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب ، وصنع في تقديم أو تأخير أو حذف وإضمار ، أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه ، وما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم ، وإذا ثبت أن فساد النظم واختلاله ، ألا يعمل بقوانين هذا الشأن ، ثبت أن صحته أن يعمل عليها» . (٣)

ويقول عن نفس هذا البيت في موضع آخر : فخذ إليك بيت الفرزدق الذي يضرب به المثل في تعسف اللفظ.....فانظر ، أتتصور أن يكون ذلك للفظه ، من حيث إنك أنكرت شيئا من حروفه ، أو صادفت وحشيا غريبا ، أو سوقياً ضعيفاً ؟ أم ليس إلا لأنه لم يرتب الألفاظ في الذكر على موجب ترتيب المعاني في الفكر ، فكد وكدر ومنع السامع أن يفهم الغرض إلا أن يقدم ، ويؤخر ، ثم أسرف في إبطال النظام وإبعاد المرام ، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة ، ولكن بعد

---

(١) جواهر البلاغة ص ١١٣.

(٢) لم أعثر على البيت فى ديوان الفرزدق

(٣) الدلائل ص ٨٣،٨٤ .

أن يراجع فيها باباً من الهندسة ، لفرط ما عادى بين أشكالها ، وشدة ما خالف بين أوضاعها ».[1]

هذا النوع من التكلف الإعرابي الممقوت هو ما أشار إليه أبو هلال العسكري في الصناعتين تحت عنوان الصنف الثاني : ما كان مستقيماً قبيحاً ، كقولك قد زيداً رأيت ، قال في الصناعتين : وإنما قبح ، لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير وهذا النوع يسميه علماء المعاني التعقيد ، وسماه ابن الأثير في المثل السائر المعاظلة المعنوية ـ ، أصل هذه الكلمة من قولهم تعاظلت الجرادتان ، إذا ركبت إحداهما الأخرى ، وعاظل الرجل المرأة إذا ركبها ـ ، وهو تقديم ما الأولى به التأخير كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ونحو ذلك وهو من المذموم المرفوض عند أهل الصنعة ، لأن المعنى يخل ويضطرب ، قال في المثل السائر ، وهو ضد الفصاحة ، لأن الفصاحة هي الظهور والبيان ، وهذا عار عن هذا الوصف فمن ذلك قول بعضهم :

فأصبحتْ بعد خط بَهْجَته كأنَ قفراً خط رسومَها قلما

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً ، كأن قلماً خط رسومها ، فقدم خبر كأن ، وهو « خط » عليها ، فجاء مختلاً مضطرباً ، وأضج منه وأكثر اختلالاً قول الفرزدق:

إلى ملك ما أمُّهُ من مُحَارب أبُوهُ ، ولا كانتْ كليبٌ تصاهرهُ [2]

يريد إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، والمعنى ما أم أبيه من محارب ، يمدحه بذلك ذماً لمحارب .[3]

ولا شك أن هذا لا يفهم من كلامه من الوهلة الأولى ، بل يحتاج إلى تريث وتأمل ورفق ، حتى يفهم المراد منه .

ويقول القلقشندي : « الأصل الثاني من صناعة إنشاء الكلام النظر في الألفاظ ، والنظر فيها من وجهين :

---

(١) الجرجاني أسرار البلاغة ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) ديوان الفرزدق ص ٢٢٢ .

(٣) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ص ٧٢ .

**الوجه الأول** : في فضل الألفاظ وشرفها ، وقد قال أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين : « ليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسن بهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود ـ عوج ـ النظم والتأليف » [1].

وعن نفس المعنى يذكر صاحب جواهر البلاغة أن فصاحة الكلام تتحقق بخلوه من ستة عيوب.....

**العيب الثاني** : ضعف التأليف ، أن يكون الكلام جارياً على خلاف ما اشتهر من قوانين النحو المعتبرة عند جمهور العلماء ، كوصل الضميرين ، وتقديم غير الأعرف منهما على الأعرف ، مع أنه يجب الفصل في نحو هذا :

كقول المتنبي :

**خَلتْ البلادُ من الغزالة ليَلها فأعاَضهَاكَ الله كي لا تَحْزَنا** [2]

وصل المتنبي بين الضميرين في قوله فأعاضهاك ، وهو ضمير الهاء على كاف المخاطبة ، وكالإضمار قبل ذكر مرجعه لفظاً ورتبة وحكماً في غير أبوابه كقول الشاعر :

**ولو أن مَجداً أخلدَ الدهر واحداً من الناس أبقى مجدُه الدهر مطعما**

فإن الضمير في مجده راجع إلى مطعماً ، وهو متأخر في اللفظ كما يرى ، لأنه مفعول به ، فالبيت غير فصيح ، ومطعم أحد رؤساء المشركين ، وكان يدافع عن النبي ﷺ ومعنى البيت ، أنه لو كان مجد الإنسان سبباً لخلوده في هذه الدنيا ، لكان مطعم بن عدي أولى الناس بالخلود ، لأنه حاز من المجد ما لم يحزه غيره». [3]

ومن أمثلة التقديم والتأخير لغير علة بلاغية ، بل جاء لضرورة الشعر ـ الوزن والقافية ـ حيث لا يضيف التقديم والتأخير جديداً لا أسلوبا ولا معنى ،

---

(١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، الجزء الثانى ص ٢٠٩ .

(٢) ديوان الفرزدق ص ٢٢٢ .

(٣) جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع ص ٢٠ .

من ذلك قول الشاعر ابن عبد ربه الأندلسي :

النَشْـرُ مسْـكٌ والوجـوهُ دنـا نيرُ وأطـرافُ الأكـف عَـنَمْ [1]

النشر ـ ريح طيبة ، العنم بالتحريك شجرة حجازية ، لها ثمرة حمراء ، يشبه بها البنان المخضوب ، فهذا الترتيب إنما يجب حفظه لضرورة الشعر ، فلو أخرنا ما تقدم فيه ، أو قدمنا ما تأخر ، لم يتغير المعنى ، كما إذا قلنا أطراف الأكف عنم والوجوه دنانير ، والنشر مسك.ومنه قول قيس لبنى :

لقد فُضِّلَت لُبنى على الناس مثلمَا على ألف شهر فُضِّلت ليلةُ القدر[2]

فلو أخرنا ما تقدم فيه ، وقدمنا ما تأخر ، لم يتغير المعنى ، كما إذا قلنا : فضلت ليلة القدر على ألف شهر.

وكقول عباس بن الأحنف :

ويحيا به قومٌ أصابوا هواهم وقد صرتُ فيهم لا أموتُ ولا أحيا[3]

فلو قال على التقديم والتأخير « لا أحيا ولا أموت » ، لم يتغير المعنى أيضاً.

---

(١) ديوان المتنبي ص ٣٣٩ .

(٢) ديوان قيس بن الملوح ص ٤٧.

(٣) ديوان عباس بن الأحنف ص ٢ .